

الروائي العربي والسلطة (*)

عرض جهاد الترك

قد يشكل هذا الكتاب لصاحبه ولقراء كثيرين، متنفساً موضوعياً لاستجلاء طبيعة العلاقة بين المثقفين - على اختلاف أصنافهم - والتجربة الناصرية، في فترة هي الأكثر تشبّعاً «بالمآذب» السياسية والاجتماعية والثقافية. وبما أن الأمر كذلك، فقد لجأ كاتب هذه الدراسة، د. سماح إدريس، إلى ما اعتبره تقنياً مقبولاً لهذه العلاقة كما توحى به الروايات التي كتبت إبان المرحلة الناصرية. وقد أفصح المؤلف عن منهجه بالقول: «لا غرو أن النص الأدبي ذو هوية خاصة به، غير أنه - علاوة على ذلك - جزء من بنية مجتمع محدّد ومن حياة كاتب محدّد وحياة مؤلفاته. ولما كان موضوع الدراسة التي بين أيدينا يتركز حول كيفية تمثيل الرواية لتشابك الاجتماعي - السياسي بالبيوغرافي، فإن التركيز لا بد وأن ينصبّ على وجود «الخارج» في «الداخل»، وما يعنيه هذا الأخير في سياق ذلك «الخارج»، بدل أن ينصبّ على دراسة «الداخل» في حد ذاته (وإن المرء ليتساءل - بالمناسبة - إذا كان المنهج الأخير ممكناً أصلاً)» (ص: ١١). على هذا الأساس، نلتقط، منذ البداية، أننا أمام جدلٍ حامٍ، من شأنه أن يتوغل عميقاً في تضاريس ما يمكن أن نسميه جيولوجيا الرواية العربية على امتداد الرقعة

(*) د. سماح إدريس: المثقف العربي والسلطة - بحث في روايات التجربة الناصرية. دار الآداب - بيروت. ط ١، ١٩٩٢.

الناصرية. يقول المؤلف معمقاً منهجه: «ينبغي أن أؤكد أنني لست معنياً أساساً بالعلاقة الفعلية بين المؤسسة الناصرية ومجموع المثقفين الناصريين... بل إن المقصود هو النظر إلى تلكم العلاقة ممثلة في الرواية المصرية». (ص ١٢). ولكن هل يمكن للرواية، وحدها، أن تدعي الاستحواذ على هذا المكسب «التاريخي»، وإن بدت - حسب تعريف جورج لوكاتش - أنها ملحمة البورجوازية التي يحلو لها أن تتمثل نفسها بأنانية، وهي في طريقها لأن تتخلّى عن هذه الذات لمصلحة أشكال اجتماعية وسياسية أخرى.

ويقفز الكاتب خطوة ثانية إلى الأمام ليقبض على منهجه كاملاً، يقول: «انه ليس بمقدور «التخييل» أن يقترب من خطاب «الواقع» فحسب، بل قد يكون الأول أكثر حقيقية وواقعية من الثاني. وليس معنى ذلك أن نغالي فنحصر الحقيقة في التخييل، فالحال أن الوهم والكذب والأسطورة تحترق الاثنان معاً. حسبنا أن نؤكد أن «الحقيقة»، إن كان ثمة من حقيقة في هذا الوجود، تقع في منزلة غير محددة، ولكنها تستقي عناصرها - على كل حال - من خطابي «التخييل» و«الواقع» كليهما. إن من يبحث عن «الحياة الخفية في منبعها الأول» - كما يقول إي. ام. فورستر - لا بد أن يقر بوجود «الحقيقة» في «التخييل» (ص ١٣).

على هذا الأساس، ويدافع من منهجه الصارم، يحاول الكاتب أن يتلمس مصدراً أو أكثر لما يمكن أن نطلق عليه «مصطلح»: الحقيقة، في عالم قلماً يتبرع لنا بشيء من هذا القبيل. ولكن يُخَيَّل إلينا أن استخدام هذه التقنية ذات الدوائر المحكمة الإغلاق، قد تكون أكثر جدوى في تبيان مشاهد الغرب - على اختلاف إيقاعاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مما هو الحال في ساحات الوطن العربي قاطبة. ففي الغرب، تبدو هذه التقنية ملائمة تماماً للكشف عما يدور فوق مسرحه التاريخي من تراكمات في شتى تفاصيل الحياة، ولعل خير دليل على ذلك، أن كل مرحلة حضارية تكاد تفسح الطريق كاملاً أمام مرحلة مستجدة تليها. وهذا ما لا نقع عليه في تاريخنا: قديماً وحديثاً. فإذا كانت الرواية ملحمة البورجوازية فعلاً، في الغرب، ووجهاً من وجوه تجليات العلاقة بين الإنسان والسلطة والكون والحياة؛ فإنها بالنسبة إلينا لا تعدو كونها شكلاً حائراً أو مشوهاً

من أشكال العلاقة نفسها. هناك النص يحاكي بُنى اجتماعية تتخذ شكل مؤسسات راسخة في جبروتها؛ هنا، النص يحاكي طفرات سياسية واجتماعية واقتصادية، هي أقرب إلى الانتهازية الحضارية، منها إلى الثبات والاستقرار.

ومهما يكن من أمر، فقد عالج الكاتب في دراسته أكثر من عشرين رواية تتوزع على كل من نجيب محفوظ ويوسف إدريس وعبد الرحمن الشرقاوي وفتحي غانم ويحيى حقي ويوسف السباعي وغالب هلسا وصنع الله إبراهيم وجمال الغيطاني. في هذا الأمر، يقول الكاتب: «إن اختيار عدد كبير من الروايات شأن؛ وأما «الانتقاء التمثيلي» أي انتقاء رواية أو روايتين لتمثيل كل التيارات الفكرية والثقافية مجتمعة، ف شأن آخر. فالمنهج الأول أكثر شمولاً من الثاني، وهو بالتالي أكثر قدرة على التوصل إلى التعميمات بشأن علاقات الشخصيات الروائية بالسلطة السياسية. بل إن المنهج الأول أكثر قدرة على تلمس الفويرقات داخل كل مجموعة من المثقفين (كالفويرقات التي نجدها بين «الهرويين» أنفسهم)، وداخل كل تقنية من تقنيات التوصل (كالفويرقات بين أشكال «الليغوريا» نفسها). أما آلية اختياري للروايات العشرين فتستند، إلى قيمة تلك الروايات الأدبية، أو أهميتها السياسية الاجتماعية، أو الأمرين معاً. وباعتمادنا على الآلية المذكورة، أمل أن أقْلص ما أمكن من عيوب النتائج التي قد يتوصل إليها المنهج الثاني» (ص: ١٤).

وقد أفرد الكاتب لبحثه فصلاً خمسة، مسبوقه بكلمة شكر ومقدمة أودعها منهجه الأكاديمي في تناوله أقسام الدراسة. وتجيء الفصول متعاقبة على الشكل التالي: الأول، عبد الناصر والمثقفون؛ الثاني: المثقفون السياسيون: خصائصهم وعلاقتهم بالنظام؛ الثالث: الشكل واللغة مضموناً؛ الرابع: محاور الرواية السياسية؛ الخامس: ملاحظات استنتاجية - آفاق الرواية السياسية في مصر والوطن العربي. يلي هذه الفصول، ثبت بالمراجع وملاحق أربعة هي: مسرد بأهم الأحداث (١٩٥٢ - ١٩٧٠)؛ ملخص الروايات؛ مقتطفات من مؤتمر؛ تراجع الكتاب. ويُذكر أن الكاتب قدم هذا البحث إلى مركز الدراسات الشرق أوسطية، في جامعة كولومبيا - نيويورك، ونال بموجبه شهادة الدكتوراه.

عبد الناصر والمثقفون

يُصدّر الكاتب هذا الفصل بالقول: «إني لا أزمع ههنا أن أكون طرفاً في ذلك النقاش، فحسبي أن أعرض طائفة من وجهات النظر قدمها بعض مثقفي مصر في علاقتهم وعلاقة زملائهم بالمؤسسة الناصرية، فأسلط الضوء على أزمة مارس ١٩٥٤، وأعدّد بعض العوامل التي عمقت تلك الأزمة بين عبد الناصر والمثقفين، ثم أركز على سياسة التعليم العالي وإنجازات وزارة الثقافة، وأبحث في القسم الرابع والأخير في العلاقة المميزة بين عبد الناصر والشريحة الماركسية اليسارية من الانتلجنسيا المصرية... إلخ» (ص: ٣١).

يراد من هذا الفصل - كما يوحي الكاتب بذلك - أن يكون مظلة حيادية حدودها لا تتخطى أبداً إطاراً من الآراء أو النقد أو التوصيات التي أبدائها عدد من المثقفين حول المؤسسة السياسية الناصرية. ويستخدم الكاتب المناقشات الدائرة، وقتئذ، استخداماً شبيهاً - إلى حد كبير - بالبيانات الإحصائية التي غالباً ما يكون لأرقامها وقع السحر أو الصدمة على الناس. وهو إذ يفعل ذلك، فإنه ينسج حول الفصول التالية درعاً يقيها مما يمكن أن يوجه إليها من ضربات نقدية قد تصيب من المنهج مقتلاً. ولعل الكاتب قد تعمّد إن يكون انتقائياً في اختياره لحظات من الجدل الصاخب بين المثقفين من جهة. والمؤسسة الناصرية من جهة أخرى. أو لعله قد استسلم لرغبات إيديولوجية دفينّة في نفسه وهو يجمع بين فئات المحطات التي شيد بها فصله هذا. ولسنا نعيب عليه نبضاته الإيديولوجية هذه، وليس في هذا ما يقلل من شأن منهجه الذي توخى فيه أقصى درجات الحيطة والحذر.

وفي كل الأحوال، لم «يقصر» الكاتب في استدعاء عدد من المحطات المكتظة ذات الدلالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وهكذا كان الازدحام شديداً، بل خانقاً في أحيان كثيرة. يبدأ بأصوات عالية نادت، وقتئذ، بعودة الجيش إلى ثكناته في أعقاب نجاح ثورة يوليو، منعاً لاختراق العسكر المجتمع المدني؛ وإلحاح عدد من المثقفين على عودة الحياة النيابية والتعددية الحزبية التي سادت سنوات ما قبل الثورة؛ وإقدام الثورة على تفضيل «أهل الثقة» على «أهل

الخبرة» (ص: ٣١ - ٣٣). وتكرر الوقائع التي يستدرجها الكاتب إلى ساحة هذا الفصل: فهاهود. عبد الملك عودة يتهم المثقفين عشية الثورة بالانعزالية والتفوق على الذات وتشتيت الجمهور (ص ٣٥)؛ ويتنقد عادل حمودة السرية التي مارسها الضباط الأحرار في إدارة شؤون الحكم، معتقداً أن شبه القطيعة التي تجذرت بين الضباط الأحرار وكثير من المثقفين، إنما تكمن في افتقار مجلس قيادة الثورة إلى نظرية شاملة وواضحة المعالم تتخطى الآنيات والمستجدات (ص ٣٦).

ثم يدفع الكاتب إلينا، ما يعتقدُه حقائق قاسية عمقت في الشرخ بين عبد الناصر والمثقفين هي: فشل الدولة في إنشاء منظمة أو مؤسسة ذات مصداقية تعوض عن الأحزاب التي حلتها؛ محاولة الدولة احتواء النقابات والاتحادات المهنية أو قهرها؛ سوء معاملة هذه الدولة لكثير من المثقفين، وهزيمتها عام ١٩٦٧ (ص ٣٧ - ٣٨). ويورد الكاتب - تعميقاً لدلالات هذه الحقائق الأربع - استشهادات أو اقتباسات أدلى بها عدد من مشاهير المثقفين والكتاب والسياسيين الذين عاصروا تلك المرحلة. نذكر منهم على سبيل المثال: فؤاد مرسي، توفيق الحكيم، نجيب محفوظ، جمال الغيطاني، إلهام سيف النصر، رجاء النقاش، مصطفى أمين، محمد حسنين هيكل، محمد جلال كشك، علي الراعي، محمود أمين العالم، محمد أحمد، وغيرهم.

ولا يفوت الكاتب وهو يتجول في منعرجات المساحة الناصرية، أن يشيد على ألسنة كثيرين بسياسة عبد الناصر الثقافية والإرشاد. ولكن، في الوقت عينه، لا يفوته، أيضاً، أن يلتقط في تجواله الصعب آراء تشكك في جدوى هذه السياسة. وفي هذا السياق يقع على أصوات مستنكرة؛ فعلي الراعي يتحدث عن انتهازين لبسوا ملابس الثورة وتسللوا إلى صفوفها الأولى لمحاولة ضربها من الداخل (ص ٥١). بينما يلاحظ جمال الغيطاني أن «الكتب اليسارية واليساريين كانوا مطاردين. فالنظام الناصري، على إنجازاته الثقافية التي لا تُنكر قد سعى (حتى بعد عام ١٩٦٤ وبعد انفتاحه على التيارات اليسارية) إلى تدجين المثقفين بغية تحويلهم

إلى تابعين» (ص ٥١). ثم يستدرك الكاتب على لسان د. إسماعيل صبري عبدالله، وهو الماركسي العريق: «ان الذين يحاولون تشويه وجه الثورة عن طريق التركيز على الجانب القمعي مخطئون. صحيح أن القمع كان موجوداً، لكن تصوير الثورة على أنها مجرد قمع، تشويه للتاريخ...» (ص ٦٢).

ولعل الكاتب في ذهابه وإيابه السريعين بين أصوات مستنكرة كثيرة، وأخرى أقل استنكاراً، يريد أن يقبض على الحقيقة كاملة. وهو محق في ذلك، في إطار ما يعتقد منهجاً ملائماً لطرح أفكاره على بساط البحث. ولكن الحقيقة في عالم متغير، حمالة أوجه أيضاً، كل منها يمارس إغراءً أيديولوجياً يصعب الفكك منه بسهولة. فالأسلوب الانتقائي الذي توخاه الكاتب لم يصب الحقيقة إلا بمقدار. وتبقى، على الأغلب، جوانب أخرى من الصورة الكلية معتمة، أو أنها قد أصيبت بتعتيم. إن الوقوع على هذه الأصوات المنبعثة من هنا وهناك، على أهميتها، قد تغدو نشازاً أو عزفاً منفرداً خارج إيقاع الأوركسترا الجماعية. ولست أعني بذلك سوى فقدان هذه الأصوات لبنيتها التحتية، أو بمعنى أكثر إيضاحاً الأرضية التي كان يتحرك فوقها المشروع الناصري برمته. إن إطلاق العنان لهذه الأصوات على صفحات الفصل الأول، كان يفترض بالضرورة مناقشتها في ضوء التحديات التي استدعاها المشروع الناصري إلى مملكته الأرضية. إذ كيف يمكن لنا أن نأخذها على إطلاقها، ونحن نستبعد مطلقاً آخر: التجربة الناصرية بأبعادها الثقافية والسياسية والاجتماعية في مصر والوطن العربي وخارجهما. وقد يميل البعض إلى الاستغراب من معادلة تقوم على طرف واحد، أو قد يظن البعض الآخر أن معادلة من هذا النوع قد تصب في خانة تصور أيديولوجي لا يخلو من الإقحام. وفي كل الأحوال، فإن المتغيرات الدولية، سريعة الوتيرة، قد قلبت المفاهيم رأساً على عقب، بحيث نحا المرء أنه أصبح يعيش خارج التاريخ فعلاً.

المثقفون السياسيون

تتوزع خريطة هذا الفصل على مواقع الشخصيات التالية: الموالي ولأء

مطلقاً؛ الاعتذاري؛ الموالي بتحفظ - الموالي ولاءً نقدياً: الرفض؛ الانتهازي؛ الهروبي - المتراجع؛ المستعدي.

عن الشخصية الموالية بتحفظ، يشير الكاتب إلى أن مواقفها غالباً ما تُتخذ كرد فعل على «أعداء الناصرية» أو «منافسيها» ولهذا، فإن تعريف «المثقفين الناصريين» يغدو أمراً بالغ الصعوبة إذ لم يحاول الباحث تعريف أعدائهم الإيديولوجيين أولاً (ص ٦٨). وغالباً ما تتميز شخصيات هذه الفئة بالسمات التالية:

من النادر (أو المستحيل) أن نجد شخصية روائية «إخوانية» موالية لعبد الناصر ولاءً مطلقاً. فالحال أن الموالين لعبد الناصر ذلك النوع من الولاء هم في الغالب مؤيدين سابقين لحزب الوفد، أو شيوعيين متجددين (ص ٧٠).

- صحيح أن المثقف المطلق الولاء يحجم في أغلب الأحيان عن الإقرار بسلبيات الثورة إقراراً لا لبس فيه، غير أنه في بعض الأحيان يتبنى مواقف محايدة لتلك التي يتخذها المثقف «الاعتذاري» أو المثقف الموالي للنظام ولاءً نقدياً (ص ٧٠).

- كثيراً ما يجد المثقف المطلق الولاء في التهديدات الخارجية، مبرراً لولائه غير المحدود لعبد الناصر، (ص ٧١).

- بالرغم من الإطراء الذي يسبغه المثقف الموالي على الجماهير الشعبية، فإنه يؤمن بالقائد إيماناً فائقاً (ص ٧١).

أما المثقفون الاعتذاريون، فإن الكاتب يعرفهم على الشكل التالي: غالباً ما يلجأ «الاعتذاريون» إلى تبرير أخطاء النظام الناصري أو تفسيرها أو تلطيفها، مستندين في ذلك إلى حجج «تاريخية» و«منطقية»، منصّبين أنفسهم في أحيان كثيرة في موقع «محامي الشيطان»، هادفين بذلك إلى إنجاح دعواهم في أعين قرائهم الفعليين والمحتملين (ص ٧٤).

وتلخص النقاط التالية حركية الموالين ولاءً نقدياً على الشكل التالي:

- يميل هؤلاء إلى التركيز على كبت النظام لحرية التعبير وعدم اكترائه بالتعددية الحزبية.

- يجمعون على الأمور الإيجابية التالية: إلغاء الناصرية للاحتلال الأجنبي والملكية، وإعلان القوانين الاشتراكية، وإعلان القوانين الاشتراكية، والموقف المعادي للصهيونية.

- كثير من الموالين المتحفظين كانوا في فترة من حياتهم رافضين للمؤسسة الناصرية رفضاً مطلقاً؛ غير أن الروايات المعالجة في هذا الفصل لا تظهر موالياً متحفظاً واحداً انتقل إلى موقع المعارضة المطلقة.

- يعترف الموالون النقادون بأخطاء النظام.

- تُجنب التهديدات التي توجهها إسرائيل والدول الغربية للنظام الناصري، الموالين المتحفظين مغبة الانزلاق إلى رفض ذلك النظام رفضاً مطلقاً.

- يقدم الموالون النقادون مبررات أخرى لتأييدهم عبد الناصر رغم هزيمة ١٩٦٧.

- قد يبدي بعض الموالين النقادين، ثقةً مفرطةً في قدرة عبد الناصر وفي مبادئ أعوانه الأخلاقية.

- يحمل منطلق الموالين المتحفظين، أسوة بمنطق الاعتداليين تناقضاته الداخلية.

- يشكل المثقفون الماركسيون غالبية الشخصيات الروائية التي تؤيد عبد الناصر تأييداً متحفظاً (ص ٩٣ - ٩٥).

يقف الكاتب عند النقاط التالية التي تشكل قواسم مشتركة بين المثقفين الرافضين:

- إن المثقف الرافض سواء أكان إخوانياً أم شيوعياً، غالباً ما يهاجم أسس النظام الأخلاقية وجهاز دعايته واستراتيجياته العسكرية.

- على الرغم من انتماء أكثر المثقفين إلى منظمات معارضته، فإن نشاطهم لا يتعدى إلقاء المحاضرات على الأنصار أو توزيع المنشير.

- يزداد رفض المثقفين الرافضين مع ازدياد قمع السلطة لهم.

- قد يقرب انعدام الموضوعية عند المثقف الرافض من حافة العبث أو التعصب.

- إن هذه الشخصيات على «تعصبها» الذي قد يستنكره الراوي أو المؤلف الضمني المجاهران بليبراليتها، لتوفر أحياناً نقداً له حظه الذي لا يستهان به من المعقولة والصواب (ص ١٠٩ - ١١٠).

وفي صدر انتشار ظاهرة الانتهازية في روايات الحقبة الناصرية، يورد الكاتب الأمور الثلاثة التالية:

- نمو «طبقة جديدة» هي «خليط غريب من البشر الذين لا ينتجون شيئاً، اجتمعوا حول الدولة المصرية وفي أجهزتها «وتعاونوا على امتصاص مواردها».

- اعتماد أكثر المثقفين والمصريين والعرب عامةً على حكوماتهم التي تسيطر على القسم الأعظم من سوق الثقافة.

- حاجة الدولة للمثقفين الانتهازيين ولو لأجل قصير. فالدولة تريد مثقفين يخدمون مصالحها وينشرون سياساتها ويبررون تحالفاتها المتقلبة والمتنقلة.

وفي حال الشخصيات الهروبية التي يستقصيها الكاتب في رواياته العشرين المنتقاة، فهي غالباً ما تخضع لمزاج متقلب سوداوي، يدفع بها إلى الانفلات في انتماء سياسي أو اجتماعي محدد. فأحياناً ترفض تقبل الوضع السياسي الجديد وتغرق في التصوف، وأحياناً تتلصق في مواصلة الكفاح حين يكون النظام الناصري - حسب زعمها - قد حقق كل الأهداف المنشودة، أو اعترافها بصعوبة معارضته النظام الناصري القوي أو عقم هذه المعارضة (ص ١٣٠). ومن ناحية أخرى، قد ينطوي الهروبيون على هروبيتهم عندما يشعرون بخطر استئفاف أي نشاط سياسي بعد أن سمعوا حكايات مرعبة عن مصير غيرهم من

المناضلين السياسيين (ص ١٣٢). وفي كل الأحوال، المثقف الهروبي رجل حزين، يصمّ أذنيه عن المظالم لإيمانه «بأن العين لا تقاوم المخز»، وبأن الأنظمة جميعها لا تستحق إلا الكره أو الرثاء بهرب من الوجد الجسدي، لكنه يعاني من أوجاع أشد فتكاً (ص: ١٣٨).

ولعلّ شخصية «المستعدين» ليلاً ما تبرز في الروايات العشرين التي جعلها الكاتب محوراً لدراسته. وهو يتوقف عند ملاحظتين: «أولاهما تتعلق بالعلاقة الخاصة التي تربط أولئك المثقفين بالنظام. إن هذه العلاقة - في مراحلها الأولى على الأقل - ذات اتجاه واحد؛ أي أن العداء في هذه العلاقة يأتي من طرف النظام. أما الملاحظة الثانية فتتعلق بقلة أولئك المثقفين «المستعدين»؛ بل إن عددهم لا يكاد يتجاوز عشرة وفديين موزعين على روايات نجيب محفوظ في الأغلب الأعم» (ص ١٤٣).

الشكل واللغة مضموناً

لطالما لجأ الاعتذاريون والموالون المتحفظون والرافضون في رواياتهم إلى اكتشاف خطورة التعبير الرمزي عما لا يمكن البوح به صراحة، أو أنه يتعذر عليهم فعل ذلك بسبب الضغط السياسي الذي ما فتى يترصد نتائجهم الأدبية. وتعويضاً عن ذلك، فقد استخدموا حسبما ذكر الكاتب، أساليب تنطوي على استبطان ما يودون أن يلقوا به في مساحات الرواية، كالاليغوريا، والإحالات ذات الطبيعة الاليغورية، والنص ذي المستويات المختلفة، وتقنيات وجهات النظر المتعددة، والسخرية والأسطورة والتناصّ بشكل عام، وغيرها (ص ١٤٩).

ويؤكد الكاتب أن «السبب الأبرز والأكثر وضوحاً لاستخدام التقنيات المذكورة يتجلى في حاجة الروائي للتعبير عن أفكاره السياسية والاجتماعية من غير أن يعرّض حياته أو حياة أقربائه أو عمله للخطر» (١٤٩ - ١٥٠). ولكنه يستطرد قائلاً: أن حرص مؤلف الستينات على سلامته ومهنته لا يمكن أن يكون السبب لاستخدامه التقنيات الفنية في روايته. «فنجمة أغسطس» - وهي رواية

من تأليف صنع الله ابراهيم، مثلاً، نشرت بعد أربع سنوات على رحيل عبد الناصر، لكنها تتضمن رغم ذلك، إشارات رمزية اليغورية إلى قمع الفراعنة وستالين والمماليك» (ص: ١٥١)، أسوة بما فعل جمال الغيطاني عندما استدعى إلى الذاكرة في روايته «الزيني بركات» التاريخ المملوكي ليبنى عليه رواية اليغورية كاملة.

محاور الرواية الرئيسية

يتبين الكاتب محاور رئيسية سبعة في الروايات التي كُتبت أثناء الحقبة الناصرية: التوقيف، السجن والتعذيب؛ الوظيفة؛ الجماهير؛ الدين؛ المرأة؛ الحزب المعارض؛ والمثقف الآخر.

في رواية «العسكري الأسود» ليوسف إدريس، يفقد شوقي - نتيجة التعذيب - بريق عينيه، ويستحيل صوته إلى «همس مؤدب خافت» وتتحول «روحه الباحثة المنقبة في أمور الدنيا والناس إلى روح لا ترى إلا أمامها، وما أمامها فقط» (ص: ١٨٥). وتشير «السكرية» كما «القاهرة الجديدة» إلى أن الحصول على وظيفة «محترمة» قد يدفع بطلها المثقف إلى فقدان «احترامه» لنفسه فمحجوب عبد الدائم خريج كلية الحقوق في «القاهرة الجديدة» يلجأ إلى تغطية دناءة قاسم فهمي لقاء شقة وخمسة جنيهات شهرياً (ص: ٢٠٥). ويشير الكاتب إلى أن الجماهير في نظر المثقف تؤدي الأدوار التالية: تحميه من الاضطهاد الذي تمارسه السلطة ضده؛ تعزز من قناعاته السياسية الماضية أو الحالية؛ إنها وسيلة من الوسائل التي يستخدمها للوصول إلى النفوذ والشهرة؛ إنها عائق أمام تحقيق برنامجه السياسي بغض النظر عن ولاء هذا البرنامج للنظام القائم أو معاداته له (ص: ٢٠٧ - ٢٠٨). وتتراوح مواقف الشخصيات من الدين، بحسب مواقعها في الرواية. فهي تارة تعتقد بأن الإسلام مكون حضاري وأصيل من مكونات الشخصية العربية (ص: ٢٢٠)، وتارة أخرى تتلاقى حوله الجماهير في تصديها للاستعمار والصهيونية. بينما تعتبره شخصيات أخرى نصيراً للأمر الواقع الراكد (ص: ٢٢٠). ويتأرجح دور المرأة بين ابتعادها عن العمل السياسي وارتضاءها بدور هامشي مفروض عليها بحكم الأمر الواقع. إلا أن الكاتب يتبين عدداً من

الروايات تصور المرأة وهي تتجاوز وظائفها التقليدية إلى ما هو أرقى . وعلى الرغم من أن الحزب المعارض يوفر للمثقف هامشاً متسعاً من الطمأنينة وحرية الحركة، إلا أن تضارباً في الآراء قد ينشأ، أحياناً كثيرة بين المثقف وحزبه، فيصبح الأول عنصراً «عصياً على الهضم والاستيعاب» (ص ٢٥٠). أما بالنسبة إلى «المثقف الآخر»، فإن ليس ثمة ما يشير حسبما يزعم الباحث، إلى أن المثقفين قد تحرروا من عقدة «البداءة الفكرية» وضعف أواصر الحوار بينهم؛ لذلك فإن سلطة الدولة تنتعش بخلافات المثقفين من أجل ديمومتها وتكريس هيمنتها (ص ٢٧٤).

آفاق الرواية المصرية والعربية

لعل الفصل الأخير الذي لا يزيد عدد صفحاته عن عشر، يتوصل إلى قناعات مفيدة بشأن علاقة المثقف بالسلطة. ويخيل إلينا، أن هذا الفصل - على وجه التحديد - قد انفلت من هواجس كثيرة كانت تشوب علاقة المثقف بالسلطة في الفصول الأربعة التي سبقت. وقد يعود السبب في ذلك إلى أن الكاتب يتعدى عن التخصيص، ويقترّب - قليلاً أو كثيراً - من التعميم الذي لا تغيب عنه سمة الموضوعية.

ويستخلص الكاتب عدداً من المواقف السيكولوجية والأخلاقية والسلوكية التي تسم روايات التجربة الناصرية، قد يكون أهمها: خطأ الصورة التي يجهد الكثير من المثقفين في إعطائها؛ فالمثقف الاعتذاري ومثيله المؤيد للسلطة لا يمارسان، بالضرورة، فعلاً ثقافياً يتلاءم مع قناعاتهما، أو قناعات الآخرين، فهما يعملان كذلك على «ترسيخ أقدام القمع أو الفساد حين يتجنبان فضح ما يؤمنان بأنه عيب أو خطأ يرتكبه النظام» (ص ٢٨٠). أما المثقفون المنخرطون في مجموعات بديلة، حسبما تشير الروايات المعالجة في هذا الكتاب، فهم غالباً ما يقوضون المفهوم الذي دأب المثقف المعارض على تقديمه لدوره - دور الإنسان الذي يمارس الوعي النقدي لحساب المضطهدين بغية انتشالهم من الاضطهاد - . (٢٨١). ويجد الكاتب في ممارسة المثقفين نقداً ذاتياً محاولة فاشلة

لإخفاء شعورهم بالتفوق وتواضعهم الكاذب وإيمانهم العميق بأنهم مقبلون في نهاية المطاف على تمثّل المثل الأعلى للعدالة في المجتمع (ص ٢٨١).

ويورد الكاتب أسباباً ثلاثة تؤدي - في أغلب الأحيان - إلى هيمنة فكرة سلطة الدولة على تفكير المثقف ومشاعره، أو أنها قد تجعله أسيراً لانبهار تمارسه عليه :

- اعتماد المثقف على السلطة اعتماداً مادياً.

- اعتقاد المثقف بأن تبنيه رموز السلطة - على اختلافها - تدفع به إلى تسلق سلم النفوذ درجة درجة.

- يقين المثقف بأنه يظل عاجزاً عن ممارسة حضور قوي وجاذبية ثقافية ملفتة، ما لم ينبر إلى الوقوف في وجه السلطة موقف الند للند.



ويظلّ الكتاب بمجمله، وخصوصاً منه الفصلان الثاني والرابع، مدعاة لجدل عريض لا تغيب عنه المناقشة الايديولوجية. صحيح ان الكاتب أثبت التزاماً مدهشاً بمنهجه الذي اختطّه لنفسه في مقدمة الكتاب، لكنه سرعان ما راح ينساق وراء إسقاطات قد لا تتحملها نصوص الروايات المستخدمة. فقد لجأ إلى تأويل الإشارات والرموز الاليغورية، كما في رواية «الزيني بركات» على سبيل المثال، تأويلاً لا يخلو من الاختزال الميكانيكي أو الرياضي، حسب مقتضيات المرحلة السياسية التي كتبت فيها الرواية. ففي الرواية المذكورة، لا يتورع الكاتب عن إلbas عدد من الشخصيات الكامنة فيها، لبوساً تلقائياً يتناسب مع شخصيات فاعلة - إيجاباً أو سلباً في المرحلة الناصرية. ولا يدعي أحد ان جمال الغيطاني وصنع الله ابراهيم وغيرهما ممن سلكوا مسلك الإيحاء الرمزي في أسلوبهم الروائي لا ينكرون انهم ضمنوا الإشارات الرمزية إيحاءات قوية إلى ما يحدث في الساحتين الثقافية والسياسية إبان الفترة الناصرية. ولكن هذا لا يعني - في الأغلب الأعم - أن نقارب رواياتهم بافتراضات مسبقة، تؤدي بالضرورة إلى إيجاد وظيفة معاصرة لكل أو لعدد من شخصياتهم الرمزية.

فالنص الروائي، كما يذكر الكاتب نفسه، فضاء مفتوح على «الداخل» و«الخارج»، وبما أن الأمر كذلك، فليترك هامش كبير لهذه الشخصيات الرمزية، تتنفس فيه الصعداء، من دون أن نقدم إليها وجبة ثرية من الاوكسجين المقلب. وبما أن هذين «الداخل» و«الخارج» هما طرف المعادلة في النص الروائي الذي ينحو في طبيعته، منحى كونياً قريباً من أدوات المثقف المعرفية ودخائله، فإن قياساً دقيقاً بالمسطرة، أو رسم دوائر ببيكار محكم، يحدّ من كونية النص الروائي، ويجعله مفصلاً على مقاسات جاهزة موجودة أمامه ووراءه، ومن حواليه، حتى لو ادعى الكاتب أنه يفعل ذلك متعمداً، لوجب عندئذ أن تناقشه في أسلوبه الروائي قبل أن نسقط على شخصياته الرمزية أدواراً أو وظائف ليست دائماً من نسيج هذه الشخصية الرمزية أو تلك.

وقد يدّعي البعض أن مناقشة طبائع القهر والقمع أو الاستحواذ التي تمارسها السلطة على المثقف، قد لا تفهم فهماً شاملاً، إذا ما صورت أنها دائماً أحادية الاتجاه؛ أي أنها تنطلق من السلطة لتصيب المثقف في عقله أو وجدانه أو جسده. وقد ينبري البعض البعض الآخر إلى القول أن هذا ليس إقراراً لأمر واقع، هو ديمومة القهر أو كبت الحريات، فهذا أمر مرفوض جملة وتفصيلاً. وقد يكون أصحاب هذا الاتجاه محقين - بعض الشيء - في بحثهم عن «الحقيقة» أو عن الحلقة الضائعة بين المثقف والسلطة. فالأول في نظر السلطة لا يمتلك مشروعاً ثقافياً أو سياسياً، فحسب، بل يربض فوق مشروع قد يتحول إلى سلطة مطلقة، أو أنه فعلاً كذلك، (وهذا لا ينطوي على إنقاص من حقه في أن يفعل ذلك. وربما سارع البعض الآخر إلى القول، أن الكاتب أغفل في بحث العلاقة أحادية القهر في روايات التجربة الناصرية، عاملاً قد يكون الأهم، وهو إغفال ما كان دائماً حاضراً في الثقافة العربية - الإسلامية، وخصوصاً بعد أن توزع مشروع الإسلام السياسي إلى مشاريع بفعل تشرذم الدولة إلى مقاطعات، يحكم كلاً منها اجتهاد ما في مقارنة الحكم والانقياد إلى السلطة.

ولذلك، فإن ثمة إجماعاً بين المثقفين العرب المعاصرين، على أن المثقف في غياب المشروع السياسي الكبير، يحمل في دوائنه مشروعاً سلطوياً، يقترب قليلاً

أو كثيراً من الايديولوجيا المتسللة إلى جهاز مفاهيمه. ولهذا، قد يفسر البعض ان الصراع بين المثقف والسلطة الناصرية، أو بين المثقف وأي سلطة أخرى، لا يعدو كونه صراعاً بين أفكار لم تأخذ حقها بعد في التجلي الحقيقي، وإن طاول هذا الصراع، أحياناً كثيرة، بدرجات متفاوتة، حرية المثقفين، أو أكثر من ذلك بكثير.

إن هذه الآراء - على تعددها - لا تنقص من قيمة المنهج الذي اعتمده الكاتب في بحثه القيم عن علاقة المثقف بالسلطة الناصرية. ولعل اقتباساً عن ناقد فرنسي، أورده الكاتب على الصفحة (٢٨٢)، يتلمس الطريق جيداً نحو لب المشكلة: «لا نختبر القوة في مجالاتها المتنوعة والمتعددة على المستويات المصغرة إلا حين نجد أنفسنا عرضة لممارسات معينة لتلك القوة أو... حين نمارسها نحن بذاتنا ضد الآخرين».